الهوية الوطنية في خطاب رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

أحمد توفيق المدني 1899–1983– أنموذجا

National identity in the discourse of the men of the Association of Algerian Muslim Scholars Ahmed Tawfiq Al-Madani 1899-1983 - a model

د. بودلاعة رياض
جامعة 20 أوت 1955 – سكيكدة
riadboudelaa@yahoo.com
r.boudelaa@univ-skikda.dz

تاريخ الاستلام: 13 /2022/11 تاريخ القبول: 02 /2022/12 تاريخ النشر: 20 /2023/01

ملخص: احتلت مسألة الهوية والوحدة الوطنية مكانة مميزة في خطاب زعماء الاصطلاح ؛ حيث ركز العلماء على إعادة بعث الهوية الوطنية ، وإعادة نشرها لدى فئات المجتمع الجزائري ، ردا على السياسة الاستعمارية التي عملت على طمس الهوية الوطنية. ومن بين هؤلاء الذين تصدوا لمسألة الهوية الوطنية ، الكاتب والمؤرخ أحمد توفيق المدني الذي وظف الكتابة التاريخية لتأكيد الهوية الوطنية الجزائرية والرد على شبهات الكتابات الاستعمارية ، فكانت له مجموعة من المؤلفات التاريخية بعضها كتبها في تونس وأكثرها في الجزائر، ومن أبرز كتبه حول الجزائر: كتاب الجزائر، جغرافية القطر الجزائري ، كتاب هذه هي الجزائر، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا. كما كانت كتاباته التاريخية وأعماله الأدبية تركز على بعث الوطنية في نفوس الشباب و الدعوة إلى التحرر من الاستعمار وإظهار اللحمة بين البربر والعرب التي أساسها الإسلام، وإبراز علاقاتهم بالمشرق قديما وحديثا، كما بين أن من يحلم بفرنسة الشعب الجزائري (عبر التجنيس) فهو واهم ، وأن الجزائر لن تحقق الرقي و الازدهار إلا بالعروبة والإسلام.

الكلمات الدالة : الهوية الوطنية ، مكونات الهوية الوطنية ، الأمة الجزائرية ، علماء الإصلاح .

Abstract:
The issue of identity and national unity occupied a distinct position in the discourse of reform leaders; Where scholars focused on reviving the national identity, and re-publishing it among the groups of Algerian society, Reply to the colonial policy that worked to obliterate the national identity. Among those who addressed the issue of national identity is the writer and historian Ahmed Tawfiq al-Madani, who employed historical writing to confirm the Algerian national identity and respond to the suspicions of colonial writings.He wrote a number of historical books,most notably The geography of the Algerian country, the book This is Algeria, the Three Hundred Years' War between Algeria and Spain. His historical writings and literary works focused on reviving patriotism in the hearts of young people, calling for liberation from colonialism, demonstrating the cohesion between the Berbers and the Arabs, which is based on Islam, and highlighting their relations with the East, ancient and modern. Algeria will not achieve progress and prosperity without Arabism and Islam.
key words : National identity, components of national identity, the Algerian nation, reform leaders .

مقدمة:

أخذت مسألة الهوية الوطنية مكانة مميزة في الخطاب التربوي والإعلامي والفكري لرجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين،وذلك قصد التصدي للمشروع الاستعماري الرامي إلى هدم المكونات الحضارية للأمة الجزائرية عبر محاربة الإسلام واللغة العربية وإنكار وجود شخصية جزائرية ، والذي اتضحت معالمه أكثر في إطار احتفالات الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر عام 1930 بالإدعاء أن الجزائر صارت فرنسية. وعندها هبت النخب الجزائرية للدفاع عن مقومات الأمة وعلى رأسها رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ؛ حيث سخَّر هؤلاء

دروسهم وخطبهم ومقالاتهم وكتبهم للتعريف بمقومات الأمة والدعوة للتمسك بها حفاظا على الهوية الوطنية حتى لا تطغى عليها هوية المستعمر الفرنسي. ومن بين هؤلاء الذين تصدوا لمسألة الهوية الوطنية ، الكاتب والمؤرخ أحمد توفيق المدني الذي وظف الكتابة التاريخية لتأكيد الهوية الوطنية الجزائرية والرد على شبهات الكتابات الاستعمارية ، فكانت له مجموعة من المؤلفات التاريخية بعضها كتبها في تونس وأكثرها في الجزائر، ومن أبرز كتبه حول الجزائر: كتاب الجزائر، جغرافية القطر الجزائري ، كتاب هذه هي الجزائر، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا.

وهي الكتب التي سنحاول من خلالها التعرف على مفهوم الهوية الوطنية عند أحمد توفيق المدني ، وما هي المصطلحات التي كان يعتمدها للتعبير عن مفهوم الهوية الوطنية ؟ وكيف وظف الكتابة التاريخية للتعبير عن هوية الأمة ؟ وما مكانة التاريخ في مكونات الهوية الوطنية عند أحمد توفيق المدني ؟ وكيف وظفت هذه القيم المعنوية من سمات وخصائص مشتركة في بناء الوطنية الجزائرية ؟

وسوف أتناول الموضوع من خلال العناصر الآتية:

- نبذة عن حياة أحمد توفيق المدني ؛
- مفهوم الهوية الوطنية ومكوناتها ؛
- دور الكتابة التاريخية عند أحمد توفيق المدني في التوثيق للهوية الوطنية والرد على مزاعم الكتاب الغربيين المؤيدين للنزعة الاستعمارية؛
- مظاهر الخصوصية والتميز للأمة الجزائرية في كتابات أحمد توفيق المدني؛
- خاتمة .

1. نبذة عن حياة أحمد توفيق المدني

ولد أحمد توفيق المدني في تونس سنة 1899م ، وكانت أسرته قد هاجرت إلى البلاد التونسية إثر ثورة المقراني عام 1871 وما لحقها من قمع استعماري ضد الجزائريين ، وكان

جده تاجرا غنيا مما وفر له ، حياة مقبولة جدا إذ نشأ في منزل فخم ، وتربى في أسرة ثرية وملتزمة ، أحاطته والدته بعناية خاصة وعلمته القرآن والحديث والأخلاق ، وكان أبوه يأخذه معه للصلاة ويربيه على مكارم الأخلاق والحكمة ويذكره بوطنه الجزائر وما أحداثه الاستعمار فيه من ألام ، فشب الطفل على روح التدين والوطنية[1] . التحق بالمدرسة القرآنية الأهلية سنة 1909 وفيها تلقى مبادئ اللغة العربية واللغة الفرنسية بالإضافة إلى العلوم الدينية والرياضيات و الحساب والكيمياء والعلوم الطبيعية ، ثم انتقل سنة 1913 إلى المعهد الخلدوني ليكمل تعليمه الثانوي ، وبعد نجاحه انتقل إلى جامع الزيتونة ، وركز أكثر على دروس بعض المشايخ والمطالعة (كتب التاريخ مثل كتاب ابن خلدون) دون الاهتمام بالحصول على الشهادة ، كما تأثر بالحركية السياسية والثقافية التي كانت تعرفها تونس واستفاد كثيرا منها، وبفضلها تشكلت شخصية النضالية خاصة وأنه عاصر أحداث محزنة عرفتها الأمة العربية والإسلامية منها احتلال ليبيا، وإثر اندلا ع الحرب العالمية الأولى سنة 1914 شارك في محاولة إعلان ثورة على الاحتلال الفرنسي مع مجموعة من الشبان التونسيين ، وإثر الوشاية بهم سجن أحمد توفيق المدني وهو في سن 16 عشر، غير أن ذلك لم ينل من عزيمته الصلبة في النضال ضد الاحتلال.

وبعد خروجه من السجن عام 1918، عاد إلى النشاط السياسي السري ، إلى غاية 1920 عندما تحول نشاطه إلى العلنية بانضمامه إلى الحزب الحر الدستوري، وكانت له عديد الأنشطة السياسية والثقافية والفكرية مثل المشاركة في الوفود السياسية وتأسيس الصحف وتقديم العرائض وتأسيس النقابات العمالية ، وأمام هذا النشاط الواسع ضد الوجود الفرنسي في تونس و كتاباته الصحفية المؤيدة للتحرر ومنها مقاله المؤيد للمجاهد عبد الكريم الخطابي في حرب الريف بالمغرب الأقصى ، قررت السلطات الفرنسية نفيه من تونس إلى الجزائر سنة 1925.[2]

ومنذ ذلك التاريخ صار أحمد توفيق المدني مؤثرا في الحياة الجزائرية سواء قبل انضمامه لجمعية العلماء أو بعد الانضمام ، فشارك في تنشيط العمل الثقافي والصحفي والتأليف . ففي المجال الأول ساهم في تأسيس نادي الترقي بالعاصمة وإنشاء بعض المدارس الحرة ، وفي المجال

الثاني شارك بمقالاته الصحفية في الشهاب ثم في البصائر ، وفي المجال الثالث أصدر عدة مؤلفات منها قرطاجنة في أربعة عصور ، وكتاب الجزائر ، ومحمد عثمان باشا ، وجغرافية القطر الجزائري ، وهذه هي الجزائر ، وحرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ، ومذكرات حياة كفاح ، إلا أن توفي في 18 أكتوبر 1983 [3].

2. مفهوم الهوية الوطنية ومكوناتها

2. 1 مفهوم الهوية

2-1-1 لغة : هي كلمة مركبة من ضمير الغائب " هو" مضاف إليه ياء النسبة التي تتعلق بوجود الشيء المعني كما هو في الواقع بخصائصه ومميزاته التي يعرف بها ، والهوية بهذا المعنى هي اسم الكيان أو الوجود على حاله، أي وجود الشخص أو الشعب أو الأمة كما هي بناء على مقومات ومواصفات وخصائص معينة تمكن من إدراك صاحب الهوية بعينه دون اشتباه مع أمثاله من الأشياء [4].

2-1-3 اصطلاحا :معنى الهوية في الاصطلاح الفلسفي العربي قد استقر ليدل على ما به الشيء هو هو بوصفه وجودا منفردا متميزا عن غيره. وتستعمل كلمة هوية في الأدبيات المعاصرة لأداء معنى (identité) التي تعبر عن خاصية مطابقة الشيء لنفسه أو الاشتراك مع شيء آخر بالصفات والخصائص عينها [5]. ومن أكثر التعاريف

و أشملها تعبيرا عن الهوية هي التي تعرفها على أنها : " مجموعة الخصائص والمميزات العقدية اللغوية والأخلاقية والثقافية والعرقية والتاريخية والجغرافية والسياسية ، والعادات والتقاليد و السلوكات التي تطبع شخصية الفرد والجماعة والأمة بطبع معين ينفرد به عن باقي الأمم ، حيث تشكل مرجعيته المعبرة عن ثقافته ودينه وحضارته" [6].

أما عن الاهتمام بظاهرة الهوية الثقافية في الفكر المعاصر، الغربي منه و العربي ، فقد باتت هذه الظاهرة تجذب الانتباه بقوة وتتعاظم باستمرار ، وقد أدى تضافر جملة من العناصر إلى تكوين المضمون الحديث لمفهوم الهوية الثقافية ، بل وفي شحذه وشحنه بحمولة وجدانية

قوية لم تكن مقترنة به من قبل ، ويمكن إيجاز هذه العناصر في : مشاعر الارتباط العاطفي المثالي بالأرض ، و بالذاكرة الجماعية والتاريخ ، والحنين إلى الماضي وإلى الأوطان عموما إضافة إلى التأثيرات التي تحدثها أيديولوجيات التحرر الوطني ، في مراحل مقاومة الاستعمار والاحتلال والهيمنة [7].

2. 2 مفهوم الهوية الوطنية

للهوية أشكال منها الهوية الشخصية والهوية الجمعية (وطنية أو قومية) ونقتصر هنا على الهوية الوطنية.

2-2-1 تعريف الهوية الوطنية : يدل هذا المصطلح على ميزات مشتركة أساسية لمجموعة من البشر ، تميزهم عن مجموعات أخرى ، حيث أفراد المجموعة يتشابهون بالميزات الأساسية التي كونتهم كمجموعة ، وقد يختلفون في عناصر أخرى لكنها لا تؤثر على كونهم مجموعة . وتتبلور الهوية الجمعية إذا توفرت لها مجموعة من العناصر ، هي : **الأرض** ، **اللغة** ، **التاريخ** ، **الحضارة** ، **الثقافة** ، **الطموح** وغيرها [8].

والهويات القومية أو الوطنية تطورت بشكل طبيعي عبر التاريخ ،وعدد منها نشأ بسبب أحداث أو صراعات أوتغيرات تاريخية سرعت في تبلور المجموعة ، وقسم من الهويات تبلور على أساس نقيض لهوية أخرى .وهكذا فإن هوية أي أمة تحمل في طياتها أبعاد تاريخية وثقافية ودينية واجتماعية وبشرية واقتصادية [9]. ومن العسير أن نتصور شعبا بدون هوية ، أو نقتنع بما يزعمه البعض بأن الهوية صورة مغلوطة عن الذات ، فمن نافلة القول تأكيد ما أثبته الدراسات السوسيولوجية من أن لكل جماعة أو أمة مجموعة من الخصائص والمميزات الاجتماعية والنفسية والمعيشية والتاريخية المتماثلة التي تعبر عن كيان ينصهر فيه قوم منسجمون ومتشابهون بتأثير هذه الخصائص والمميزات التي تجمعهم .ومن هذا الشعور القومي ذاته ، يستمد الفرد إحساسه بالهوية والانتماء ، ويحس بأنه ليس مجرد فرد نكرة ، وإنما يشترك مع عدد كبير من أفرد الجماعة في عدد من المعطيات والمكونات والأهداف ، وينتمي إلى ثقافة مركبة من جملة من المعايير والرموز والصور[10].

3-2-2 مكونات الهوية الوطنية الجزائرية

أدت السياسة الاستعمارية القائمة على هدم هوية الأمة الجزائرية ، إلى ظهور رد فعل وطني تصدى لهذه السياسة عبر النشاط الفكري والثقافي والسياسي لأحزاب وجمعيات الحركة الوطنية التي ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين ، وبخاصة من التيار الإصلاحي ممثلا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و التيار الاستقلالي ممثلا في نجم شمال إفريقيا – حزب الشعب، وهما التياران اللذان تشابها في تحديد العناصر المشكلة للهوية الجزائرية ، **والمتمثلة في الجزائر كإقليم والعربية كلغة والإسلام كدين ، والمشرق العربي كبعد حضاري في إطار إتحاد مغاربي يشكل كتلة تاريخية واحدة ، يجمع بينهم المصير المشترك** [11].

والملاحظ أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين باعتبارها تيار ثقافي ركزت أغلب جهودها على مجابهة سياسة فرنسا في المجال الثقافي ، وعلى إبراز عناصر الهوية الوطنية أكثر من أي تيار وطني آخر ، بل إن الجمعية لم تتأسس إلا من أجل هذه الغاية ، وهذا على خلاف التيار الاستقلالي الذي كان يدعم مطلبه الاستقلالي بالهوية الوطنية [12]. ومن أشهر رجال الإصلاح الذين اشتغلوا مبكرا على مسألة الهوية حتى قبل تأسيس الجمعية المؤرخ والأديب أحمد توفيق المدني ، الذي سيوظف قلمه لخدمة مسألة الهوية الوطنية سواء من خلال مقالاته الصحفية أو كتبه التاريخية ، وكانت كتابته التاريخية موجهة للرد على الخطاب الاستعماري الذي يريد أن يؤكد شرعية الاحتلال .

3. دور الكتابة التاريخية عند أحمد توفيق المدني في التوثيق للهوية الوطنية والرد على مزاعم الكتاب الغربيين المؤيدين للنزعة الاستعمارية؛

إن طبيعة الوسط الثقافي والسياسي الذي نشأ فيه أحمد توفيق المدني بتونس جعله يدرك أهمية التاريخ في حياة الأمم وحماية هويتها الوطنية حتى في ظل فقدان السيادة السياسية نتيجة لظروف الاحتلال ، ولهذا اهتم كثيرا بتاريخ الجزائر للتأكيد على هويتها العربية و الإسلامية ودحض الأفكار الفرنسية القائمة على إمكانية إدماج الشعب الجزائري في الأمة الفرنسية.

1.3 التاريخ والهوية عند أحمد توفيق المدني

إن التاريخ المشترك يعتبر أحد مقومات الهوية الجماعية، فهو يمثل وعي الأمة وشعورها، بحيث لا يمكن لهذه الأخيرة أن تتوحد إلا بتاريخها المشترك ، ذلك لأن " الذكريات التاريخية تقرب النفوس وتوجد بينها نوعا من القرابة المعنوية "وعلى هذا فإن من يشتركون في ماض واحد ويعتزون به هم أبناء أمة واحدة [13].

ولما كان التاريخ يوحد بين أفراد الأمة الواحدة ويبين مقومات هويتها في الماضي، فإن كتابة التاريخ لا تتحكم فيها أهداف تأملية تحليلية فحسب (دراسة الوثائق)، بل إن دراسة الماضي تنطلق كذلك من إرادة البحث عن إجابة لأسئلة قائمة في الحاضر ومن إرادة في معرفة الشروط التي تمكننا من التأثير في الواقع المجتمعي الراهن .. ينطبق هذا الحكم على أحمد توفيق المدني لأن تاريخه يهدف إلى دحض الأحكام التي أطلقها المؤرخون الاستعماريون على ماضي الجزائر فقالوا أنه تاريخ بلا دولة ولا سيادة ولا وطن . فيرد عليهم أن للجزائر عبر التاريخ أرض وسيادة وطنية ودولة ولم يتمكن الغزو الاستعماري الأوروبي من طمسها [14]. وذلك بكتاباته المختلفة عن جغرافية الجزائر وتاريخها منذ مجيء الفينيقيين إلى فترة الثورة التحريرية من خلال كتبه : قرطاجنة في أربعة عصور ، وكتاب الجزائر ، ومحمد عثمان باشا ، وجغرافية القطر الجزائري ، وهذه هي الجزائر ، وحرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ، ومذكرات حياة كفاح بأجزائها الثلاث .

2.3 نماذج عن الكتابات التاريخية التي توثق للهوية الوطنية وتدحض مزاعم أوهام المؤرخين الفرنسيين عند أحمد توفيق المدني

لقد أثارت الاحتفالات المئوية للاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1930م سخط الجزائريين ، لكنها في آن واحد حفزتهم لإرساء وبعث مشروع ثقافي وطني يرد على أوهام المؤرخين الفرنسيين الذين أنكروا ذاتية وهوية الأمة الجزائرية ، وبدأت تبرز أولى الكتابات التاريخية الوطنية التي توضح وجود الوطن منذ العصور القديمة ، وأكدت تاريخ الجزائر وأبرزت بطولات زعمائه عبر التاريخ ، وكان من الرعيل الأول الشيخ مبارك الميلي ، أحمد توفيق المدني

، عبد الرحمان الجيلالي [15]. وكان أحمد توفيق المدني في كتاباته التاريخية يغتنم الفرصة ويعبر عن رأيه الخاص في التاريخ الوطني ، وحتى في الكتب التي تبدو بعيدة في موضوع الجزائر بعناوينها ، ذلك أن أطروحته الرئيسية هي التوجيه السياسي للشباب وبعث الوطنية التي يسميها «الملية» ، في نفوسهم والدعوة إلى التحرر من الاستعمار الحديث بإدانة الاستعمار القديم الروماني ، وإظهار شخصيته ببلاد المغرب المزيجة من البربر والعرب ، وإبراز علاقاتهم بالمشرق قديما وحديثا . هذه الأطروحة مكررة في معظم كتابات الشيخ المدني ، وكان شعاره هو : الإسلام ديني ، العربية لغتي ، والجزائر وطني ، وهو الشعار الذي أصبح على لسان الحركة الإصلاحية [16].

وقد تضمنت كل كتب أحمد توفيق المدني ردود واضحة على الأطروحات الاستعمارية الفرنسية ؛ حيث جاء كتابه **قرطاجنة في أربعة عصور** كرد فعل على السياسة الفرنسية الثقافية القائمة على إبراز التراث الروماني للمنطقة والتنقيب على آثاره في كل أنحاء الجزائر ، لإظهار أن الجزائر رومانية . وقد تضمن الكتاب الذي صدر عام 1927 تاريخ منطقة شمال إفريقيا من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي ، وقسمه إلى مقدمة عرف فيها بجغرافية بلاد المغرب ودوله ، ثم مدخل عرف فيه بأصول البربر وعاداتهم ثم جاءت الفصول الأربعة " دولة قرطاجنة ، قرطاجنة الرومانية ، قرطاجنة الوندال ، قرطاجنة البيزنطية " [17]. وقد نوه فيه كثيرا ببطولات القادة النوميديين، ومن أبرزهم ماسينيسا ويوغرطة هذا الأخير الذي عمل جاهدا على الاستقلال عن روما وقطع كل رابط معها وذكر أن يوغرطة قد قال :" إننا خلقنا أحرارا في بلاد نوميديا فلا نرضى بتحمل عبء اليد الأجنبية على رؤوسنا وصمم على نزع تلك اليد " [18]. وهكذا يوضح أحمد توفيق المدني أن بلاد المغرب لها تاريخها ودولها وقادتها في العهود القديمة وهي تعتز باستقلالها وحريتها ،ويلهم بذلك أجيال عهده بضرورة رفض الواقع الاستعماري الجديد.

أما **كتاب الجزائر** الذي ظهر عام 1932 وهو مصنف سياسي ، وتاريخي وطني ، فقد جاء ردا على الاحتفالات المئوية الفرنسية التي نبشت الجروح وجرحت المشاعر ، فكان

معارضة صريحة لما زيفته الأقلام الفرنسية في التاريخ الجزائري ، رسخ من خلاله توفيق المدني الوطنية الجزائرية ، وبعث روح الهوية القائمة على المبادئ الثلاث الإسلام ديننا العربية لغتنا الجزائر وطننا [19].

وأكد أحمد توفيق المدني في مقدمة الكتاب أنه يقدمه للشباب المسلم الجزائري حتى يعرف وطنه ، قائلا :" فهو وطن ماجد ، تاريخه نبيل ، ورجاله أبطال ، وأرضه صالحة ، وأمته حية شريفة ، ولن تكون لمعرفتك إياه من نتيجة إلا إقبالك على خدمته الخدمة المثلى ، فتقيله من عثرته ، وتسر به بحول الله نحو المستقبل السعيد . وتذكر ولا تنس أن الجزائر لا تسعد إلا إذا عملت في دائرة دينها ولغتها وقوميتها..ولتتخذ شعارك في حياتك و أعمالك ، هذه الكلمات: الإسلام ديني ، العربية لغتي ، الجزائر وطني"[20].

4. مظاهر الخصوصية والتميز للأمة الجزائرية في كتابات أحمد توفيق المدني.

بالإضافة إلى الخصائص الثابتة للأمة الجزائرية من عروبة وإسلام واندماج وطني بين العربي والبربري والعادات والتقاليد والتاريخ المشترك فإن الأمة الجزائرية امتازت بمظاهر خاصة طبعت هوية الأمة الجزائرية عن غيرها ومن أبرزها:

1.4 روح المقاومة : وجه أحمد توفيق المدني كتاباته للتعريف بالمقاومة الوطنية منذ الاحتلال الروماني إلى غاية الثورة التحريرية ، فقد كتب في مؤلف لمسرحية بعنوان "**حنبعل**" التي عرضت سنة 1948 بالجزائر العاصمة، و يدور موضوعها حول البطل البربري حنبعل الذي حارب الرومان و انتصر عليهم في معارك كثيرة .و لا تخلو المسرحية طبعا من مرامي سياسية أراد المؤلف من ورائها أن يبث روح الجهاد و النضال و المقاومة لدى الشعب الجزائري المضطهد و قد كتب المدني في آخر المسرحية:"لتعلم الأمم و ليسجل التاريخ لا عظمة ولا مجد ولا خلود إلا لمن عاش مجاهدا في سبيل الحرية و مات شهيدا في سبيل الوطن".

2.4 **رفض التجنس** : ناقش أحمد توفيق المدني في **كتاب الجزائر** وضعية المسلم الجزائري من الناحية القانونية ومن ناحية الجنسية إبان فترة الاحتلال ، فأكد أن المسلم الجزائري من حيث المنطق والمعقول هو مسلم جزائري وكفى، ومن حيث القانون الدولي هو فرنسي ، ومن حيث

المعاملات الداخلية الفرنسية هو" رعية فرنسية " يقوم بالواجبات ولا يتمتع بالحقوق الفرنسية إلا إذا رضي بالخروج عن أحكام الشريعة الإسلامية في كل ما يتعلق بحالته الشخصية ودخل تحت أحكام القانون المدني الفرنسي ، (أي بشرط التجنس) ، لكن هذه الحركة يقول أحمد توفيق المدني لم تلقى إقبال بالمرة وأن الطبقات الإسلامية كلها تنفر من التجنس نفورا كبيرا وتعتبر المتجنس مارقا عن الدين حتى أن الطلبة في منطقة القبائل رفضوا الصلاة وتلاوة القرآن على الموتى من المتجنسين ، كما أن المتجنسين لم يجدوا من الفرنسيين شعبا وإدارة ما كانوا يرجونه من وراء تجنسهم ، وصاروا يشكلون طبقة ثالثة لا هم فرنسيين ولا هم أهالي [21].

ويخلص أحمد توفيق المدني إلا أن المسلمين الجزائريين يريدون أن يتحصلوا على الحقوق وعلى الحرية مع بقائهم مسلمين، وأنهم يرفضون التخلي عن دينهم مقابل بعض الحقوق المحدودة ، ثم يؤكد بأن من يحلم بفرنسة الشعب الجزائري فهو واهم قائلا : " فالذين يرون على قصر نظر وقلة بحث وعدم دراسة للوسط الجزائري ، أنه يمكن أن يجعل من هذا الشعب المسلم القومي الصلب شعبا فرنسا بحثا ، مع طول الزمن ، في عوائده وأخلاقه ونظمه ولغته وتقاليده إنما هم قوم يعللون النفس برؤية البدر الساطع في رابعة النهار" [22]. ثم يقول :" لم نر في التاريخ العالمي أن أمة من الأمم وقع عليها الاحتلال فاندمجت بكليتها ذاتية وأخلاقا ولغة ونظاما في المحتل وأصبحت وإياه جزءا واحدا ذلك مخالف لنواميس الطبيعة ولسنن الله في كونه ؛ ولن تجد لسنة الله تبديلا . فالجزائر سواء أحرزت أو لم تحرز على الحقوق السياسية ، ستبقى رغم كل شيء جزائر عربية مسلمة ، لن تترقى ولن تتقدم ولن تنهض من كبواتها إلا على طريق الجزائرية والعروبة والإسلام[23].

3.4 الوحدة الوطنية:

أمام السياسة الفرنسية القائمة على التفريق بين القبائل و العرب ، عالج أحمد توفيق المدني هذه القضية التي تريد من خلالها فرنسا أن تفرق بين أفراد الأمة الجزائرية ، وتفكك الوحدة الوطنية ، وتغرس المسيحية في سكان منطقة القبائل ، وتبعدهم عن الدين الإسلامي حيث ذكر في كتابه **هذه هي الجزائر** أن الإسلام قد وحد بين قلوب العرب والبربر ، و أن

العروبة قد ربطت بينهم ،و أنهما اندمجا في الوطنية الجزائرية قائلا : " أما في البلاد القبائلية التي طالما حاولت فرنسا بصفة إجرامية فصلها عن الإسلام ، فالقضاء «الإسلامي » يعتمد هنالك ، منذ سنة 1874، على العرف والتقاليد القبلية ، أكثر مما يعتمد على الفقه الإسلامي ، وذلك جريا وراء تلك السياسة الخرافية التي ترمي إلى الفصل بين العربي والبربري ، وقد خلقهما الله إخوانا، ووحد بين قلوبهم الإسلام ، وربطت بينهم أوشاج العروبة ، واندمجا في الوطنية اندماجا لا تنفصم عراه "[24]. وركز أحمد توفيق المدني على النسب والواحد بين العرب والبربر، وعلى التشابه بينهما في الكثير من الخصائص الاجتماعية والنفسية ، حيث قال :" البربر أبناء عم العرب والفينيقيين " وقال أيضا : " كان البربر مثل العرب يحبون الاستقلال وكانوا معا رعاة متجولين، ولكلا الفريقين أميال واحدة ، وعواطف واحدة ، شركاء في الفخر ، وتعشق الحرية ، واحترام الضيوف ، وإكرامهم ، إن هذا الاشتراك في العواطف والأخلاق قد كسر الحواجز التي لم يستطع اخراقها لا الرومان ولا الوندال و لا الروم ، وأصبح البربر أشد رجال الجند الإسلامي " [25].

كما كان أحمد توفيق المدني يشدد على فكرة الاتحاد الوطني بين كل العناصر التي تشكل المجتمع الجزائري منذ بداياته النضالية في الجزائر ، فقد جاء في الخطاب الذي ألقاه في نادي الترقي يوم 3 جويلية 1927 ، والذي أورده في مذكراته **حياة كفاح** (ج2) قائلا:" اتحاد بين أصحاب النيات الحسنة ، بقطع النظر عن الحسب وعن المال وعن المركز الاجتماعي . واتحاد تام مطلق بين كل العناصر التي تكون المجتمع الجزائري فليس في الجزائر فرق بين العربي والقبائلي والتركي والميزابي ، والشاوي ، فالجميع يجتمعون في الدين الإسلامي وفي اللغة العربية وفي الوطن الجزائري وفي آمال التحرر والانطلاق[26] ".

5. الخاتمة: في نهاية هذه الدراسة نخلص إلى النتائج الآتية :

– إن المخطط الفرنسي الاستعماري القائم على هدم مكونات الأمة الجزائرية بمختلف أبعادها الدينية والثقافية والتاريخية قد تمت مواجهته من قبل أطراف الحركة الوطنية التي تصدت إلى هذه السياسة الاستعمارية عبر أنشطتها المختلفة سواء الدينية والثقافية منها أو الفكرية

والسياسية ، وكان علماء الإصلاح أبرز من أدرك أهمية مجال الهوية في مقارعة الاستعمار الفرنسي وسياسته وهكذا سخر العلماء المصلحون جهودهم للدفاع عن الهوية الوطنية الجزائرية التي تمحورت حول الإسلام الذي يجب العمل على إصلاح عقائده وصد العدوان على مساجده وأوقافه ، واللغة العربية بإحياء آدابها وتاريخها اللسان العربي ، والوطنية الجزائرية الجامعة بين الإسلام والعروبة.

– كان أحمد توفيق المدني من بين أهم رواد الإصلاح الذين كان لهم دور بارز في التعريف بهوية الأمة الجزائرية وبث مقوماتها فيفئات المجتمع الجزائري عبر الكتابة التاريخية ، وذلك من خلال تعريف الجزائريين بتاريخهم وأمجادهم القديمة والحديثة وربطهم بهويتهم الحضارية العربية الإسلامية ، فألف عديد الكتب حول تاريخ الجزائر والبلدان المغاربية ومن أبرزها : قرطاجنة في أربعة عصور ، وكتاب الجزائر ، ومحمد عثمان باشا ، وجغرافية القطر الجزائري وهذه هي الجزائر ، وحرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، بالإضافة إلى أعماله الأدبية مثل مسرحية حنبعل.

– يعتبر التاريخ أحد العناصر الثابتة في مكونات الهوية لهذا خصه أحمد توفيق المدني بالنصيب الأوفر من كتاباته لتذكير الشعب الجزائري بتاريخه وأمجاده وبطولاته عبر التاريخ ، فكان خطابه التاريخي يهدف إلى توضيح لا شرعية الاحتلال، ويقوم على دعوة الشباب إلى بعث الوطنية التي يسميها «الملية» والعمل من أجل التحرر والاستقلال .

– بين أحمد توفيق المدني أن عناصر الهوية الجزائرية ترتكز على الثلاثية الأساسية ، وهي الإسلام ديننا ، والعربية لغتنا ، وجزائر وطننا ،وأما عن محاولة التفريق بين البربر والعرب من قبل السلطات الاستعمارية ، فقد أكد أحمد توفيق المدني على النسب والواحد بين العرب والبربر، وعلى التشابه بينهما في الكثير من الخصائص الاجتماعية والنفسية ،وأن الإسلام قد وحد بين قلوبهم ، وربطت بينهم أوشاج العروبة ، مما جعلهم يندمجون اندمجا في الوطنية لا تنفصم عراه . وأن الشعب الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي متمسك بهويته ويرفض التجنيس ،وأن الجزائر لا يمكن لها أن تزدهر إلا في ظل العروبة والإسلام .

6. الهوامش :

[1] أمال معوشي : أحمد توفيق المدني " لمحة عن إسهاماته الثقافية ودوره الدبلوماسي في الثورة التحريرية ، مجلة البحوث التاريخية ، المجلد 3 ، عدد 1، مارس 2019، ص 195

[2] ابراهيم بن عبد الله خزيمي، موسوعة أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر الهجري في العالم العربي والإسلامي ، ج1 ، دار الشريف للنشر والتوزيع ،الرياض ، 1419هـ، ص 282 ، ومحمد طيبي: دور المهاجرين الجزائريين في الحركة الوطنية التونسية في مطلع القرن العشرين ،مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة الوادي ، المجلد 4 ، عدد 1، جوان 2013 ، ص 48.

[3] أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي، 183-1954،ج7،دار الغرب الإسلامي،ط1،بيروت،1998،ص ص418-421

[4] مجيد مسعودي : مسألة الهوية في برامج الحركة الوطنية الجزائرية 1926-1954م، أطروحة دكتوراه في العلوم السياسية جامعة الجزائر3 ، 2017-2018 ، ص 13

[5] علي أسعد وطفة : إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة ، أحمد بعلبكي وآخرون ، الهوية وقضايا في الوعي العربي المعاصر ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 2013، ص 157

[6] صياد مليكة : الهوية الثقافية.. الماهية والمقومات الأساسية في خطاب البشير الإبراهيمي ، مجلة بدايات ، جامعة الأغواط ، المجلد 2 العدد2 ، نوفمبر 2020 ، ص 72.

[7] عبد الرزاق الدواي : في الثقافة و الخطاب عن حرب الثقافات ، حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة ، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية ، ط1 ، بيروت ، 2013، ص154

[8] عبير بسيوني رضوان : أزمة الهوية والثورة على الدولة في غياب المواطنة وبروز الطائفية ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، القاهرة ، 2012 ، ص 86

[9] المرجع نفسه ، ص 86

[10] المرجع نفسه ، ص87

[11] مجيد مسعودي : المرجع السابق ، ص 298

[12] المرجع نفسه ، ص 298

[13] شهيدة لعموري:إشكالية الهوية في فكر جمعية العلماء محمد البشير الإبراهيمي نموذجا،رسالة ماجستير في الفلسفة، جامعة الجزائر ،2006،ص 17

[14] محمد غالم: براديقما المقاومة في الخطاب التاريخي الإصلاحي : أحمد توفيق المدني – نموذجا، المجلد 2 عدد 4 ، جامعة وهران ، جانفي 2012، ص 191

[15] سفيان لوصيف : الهوية الوطنية في النصوص والمواثيق الجزائرية ، مجلة دراسات ، المجلد 9 عدد8 ، جامعة قسنطينة 2 عبد الحميد مهري ، جويلية 2018 ص 93

[16] أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، 1830-1954 ، ج7 ، المرجع السابق ، ص 420

[17] أحمد توفيق المدني : قرطاجنة في أربعة عصور ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986، ص ص 164-162

[18] المرجع نفسه ، ص 82

[19] أمال معوشي ، المرجع السابق ، ص 203

[20] أحمد توفيق المدني : كتاب الجزائر ، المطبعة العربية ، د ت ، ص ص 3-4

[21] المرجع نفسه ، ص ص 350- 351

[22] المرجع نفسه ، ص 351

[23] المرجع نفسه ، ص 352

[24] أحمد توفيق المدني : هذه هي الجزائر ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1956، ص 139

[25] مجيد مسعودي : المرجع السابق ، ص 19

[26] أحمد توفيق المدني: مذكرات أحمد توفيق المدني حياة كفاح (02)،ج2 ، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2013، ص 133.

7. المصادر والمراجع

أولا : الكتب

1- الدواي عبد الرزاق: في الثقافة و الخطاب عن حرب الثقافات ، حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة ، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية ، ط1 ، بيروت ، 2013.

2-المدني أحمد توفيق : قرطاجنة في أربعة عصور ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986.

3 – المدني أحمد توفيق : كتاب الجزائر ، المطبعة العربية ، د ت .

4- المدني أحمد توفيق : هذه هي الجزائر ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1956.

5- المدني أحمد توفيق :مذكرات أحمد توفيق المدني حياة كفاح (02) ،ج2 ، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2013

6- بسيوني رضوان عبير: أزمة الهوية والثورة على الدولة في غياب المواطنة وبروز الطائفية ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، القاهرة ، 2012

7- وطفة علي أسعد: إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة ، أحمد بعلبكي وآخرون ، الهوية وقضايا في الوعي العربي المعاصر ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 2013

8-سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي ، 1830-1954 ، ج7 ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، بيروت ، 1998.

9- خزيمي ابراهيم بن عبد الله ، موسوعة أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر الهجري في العالم العربي والإسلامي ، ج1 ، دار الشريف للنشر والتوزيع ، الرياض ، 1419هـ.

ثانيا : الرسائل والأطروحات

1- مسعودي مجيد : مسألة الهوية في برامج الحركة الوطنية الجزائرية 1926-1954م، أطروحة دكتوراه في العلوم السياسية جامعة الجزائر3 ، 2017-2018 .

2- لعموري شهيدة :إشكالية الهوية في فكر جمعية العلماء محمد البشير الإبراهيمي نموذجا،رسالة ماجستير في الفلسفة، جامعة الجزائر ،2006

ثالثا : المجلات

1- طيبي محمد: دور المهاجرين الجزائريين في الحركة الوطنية التونسية في مطلع القرن العشرين ،مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة الوادي ، المجلد 4 ، عدد 1، جوان 2013

2- لوصيف سفيان: الهوية الوطنية في النصوص والمواثيق الجزائرية ، مجلة دراسات ، المجلد 9 عدد8 ، جامعة قسنطينة 2 عبد الحميد مهري ، جويلية 2018

3- معوشي أمال : أحمد توفيق المدني " لمحة عن إسهاماته الثقافية ودوره الدبلوماسي في الثورة التحريرية ، مجلة البحوث التاريخية ، المجلد 3 ، عدد 1، مارس 2019

4- صياد مليكة : الهوية الثقافية.. الماهية والمقومات الأساسية في خطاب البشير الإبراهيمي ، مجلة بدايات ، جامعة الأغواط ، المجلد 2 العدد2 ، نوفمبر 2020

5- غالم محمد : براديقما المقاومة في الخطاب التاريخي الإصلاحي : أحمد توفيق المدني – نموذجا، المجلد 2 عدد 4 ، جامعة وهران ، جانفي 2012